" تجليات اللون عند أغربة العرب "

مقدمة من الباحثة:

دينا حمدان السيد عنتر

أغربة العرب والوعي اللوني:-

يتناول البحث أثر وعي الشعراء الأغربة في العصر الجاهلي بلونهم الأسود، والشعراء الأغربة هم الشعراء الذين انتقل إليهم السواد من أمهاتهم، فكانوا سُبَّةً يُعيَّر بهم آباؤهم، وهم ثلاثة، عنترة بن شداد، وخفاف بن نُدبة، والسُليك بن السُلكة، وينقسم هذا البحث إلى ثلاثة فصول، الفصل الأول بعنوان "أغرحح رلاحبة العرب وعقدة اللون"، وهو يبحث أثر عقدة اللون على حياتهم وفي أشعارهم، والفصل الثاني عن "دلالات الألوان في شعر الأغربة" وهو يستنبط دلالات كل لون من الألوان الستة الأساسية في أشعارهم (الأسود، الأبيض، الأحمر، الأصفر، الأخضر، الأزرق)، والفصل الثالث الذي يدور حول "اللون وتصوير المرأة عند الأغربة" ويبحث في مدى اتفاق نظرة هذه الفئة من الشعراء إلى المرأة عامة، وجمالها خاصة ومدى اتفاق هذه الصورة مع مقاييس جمال المرأة في المجتمع الجاهلي.

الفصل الأول: أغربة العرب وعُقدة اللون.

منذ اللحظات الأولى لولادة الشعراء الأغربة هم – ومن علي شاكلتهم– يُعانون حياة العوز والحرمان ماديًا ومعنويًا، لولادتهم المنافية لناموس القانون العام للقبيلة، والتي ليس لهم يدٌ فيها، ومع ذلك حالت دون طموحاتهم، فاخترط بعضهم السيف وتقمَّص شبح الموت وارتمى في أحضان الحروب ليُدافع عن القبيلة، ولينال الحُظوة، لعلها تُضحي راضيةً عن سواده، وفلح شفتيه، فتولدت لدى هؤلاء الأغربة عُقد مستعصية، "فعنترة ظل يُعاني من عُقدة اللون وهو في قمة انتصاراته"[1] عنترة الفارس المغوار، صوت القبيلة وحامي حماها، والذائد الأول عن حوضها، وخفاف بن نُدبة، الذي اعترف به أبوه منذ ولادته ومع ذلك سُمي بابن نُدبة، ونُدبة أمه فلم يُفده اعتراف والده ببنوته ولا ما اشتُهر به من "الفروسية والشجاعة والأنفة والدفاع عن النفس"[2]، وإنما بقي سوادُه شاهدًا على عبوديته،

([1]) اللون وأثره النفسي في شعر عنترة العبسي، د. صباح محمد علي، جامعة الأزهر بأسيوط، ٢٠٠٣م، ص٢٠.

([2]) خفاف بن نُدبة حياته وشعره، د. جمال محمود سيد أحمد جنيدي، جامعة الأزهر، فرع البنات بالقاهرة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، د.ت، ص١٢.

والسُّليك بن السُلكة الذي ضرب صفحًا عن الذوبان والانخراط في القبيلة فحاول قطع الوشائج التي تربطه بها ففضّل التصعلك، أو لنقل فُرض عليه التصعلك، والذي فرضه عليه سواده، لأنه "ربما كان السواد سببًا مباشرًا لتصعلك هذا الشاعر وخروجه علي المجتمع"[1]، فتكوَّنت لديهم العُقد النفسية مثل عقدة التفوق التي ظهرت عند عنترة فقد يكون التفوق عُقدةً وُلدت من رحم عُقدة الدونية أو النقص، وتغذت بلبنها، فعُقدة التفوق، ليست "مقابل لعُقدة الدونية أو الضعة"[2] عند الشعراء الأغربة كما قال د. جميل قاسم، ولكن تطورت عُقدة الدونية عند بعضهم كعنترة، لتتحول إلى عُقدة تفوق، فعنترة الذي افتخر بسمات العبد:

أنا العبدُ الذي خُبِّرتِ عنه يُلاقي في الكريهة ألفَ حُرٍّ [3]

هو هو عنترة الذي افتخر بمزايا الفارس، في ثنائيةٍ غريبة:

بني عبس سودوا في القبائل وافخروا بعبدٍ له فوق السماكين منبرُ[4].

فقد كانوا "طبقة مُهانة، كذا مطحونة، لأنهم كانوا يُذادون بالعُنفِ مرةً وباللين مرةً أخرى عن أن يكونوا داخل نسيج المجتمع الحي، وهكذا عاشوا علي هامش هذا المجتمع، طبقة فقيرة مُهانة، كذا ومدموغة في الوقت نفسه بالسواد، فهم لا يُعترف بهم إلا تحت ضغطٍ ثقيل"[5]، وحاولوا تغيير مجرى حياتهم، وتوجيه دفَّة السفينة نحو شاطئ الكمال والحرية، هاربين من نكد السواد الذي يلاحقهم أنَّى جلوا، واتخذوا إلى ذلك سُبلًا منها "إما بوساطة السلوك الاجتماعي المستقيم من علو الهمة، وسمو الأخلاق، وطيب الأعمال، أو بتجريد السيوف إن اقتضت الضرورة ذلك"[6].

ولكن عند النظر إلي الجانب الايجابي لأثرها في شعرهم يُلاحظ أنها كانت سببًا في تفتق مواهبهم الشعرية، فمُعلقة عنترة "لنظمها سبب يتصل بأصل عنترة

---

(1) ديوان الشنفرى ويليه ديوانا السُليك بن السُلكة وعمرو بن براق، إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر، بيروت، ص٧٣.

(2) سيرة عنترة بن شداد إلياذة العرب، جميل قاسم، مجلة العربي، ع٥٩٠، مجلة شهرية ثقافية مُصورة تأسست عام ١٩٥٨، تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت، باب تاريخ وأشخاص وتراث، ٢٠٠٨م.

(3) شرح ديوان عنترة بن شداد، شرح وتقديم أ.د. محمد علي سلامة، راجعه وضبطه د. عبد فتحي عبداللطيف، الصحوة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٠م، ص١٠٠.

(4) السابق، ص٨٧.

(5) أغربة العرب وتراكمات الأمومة في الشعر الجاهلي، د. هيام حمَّاد، ج١، عنترة بن شداد، دار حراء للنشر والتوزيع الجامعي، المنيا، ٢٠٠٠م، ص٥٩.

(6) جدلية القيم في الشعر الجاهلي، رؤية نقدية معاصرة، د. جمعة بوبعيو، من منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، ٢٠١٠م، متاح على http://www.awu-dam.org، ص٨٠.

ولونه"[١]حين عيَّره أحد قومه بسواده وسواد أمه وإخوته، فكان أول ما قاله من الشعر معلقته التي مطلعها:-

هل غادر الشعراء من مُتردَّم أم هل عرفت الدار بعد توهُّم[٢].

فكان من العوامل التي فتقت موهبة عنترة الشعرية، معاناته من جرَّاء لونه[٣], وكذا دافع الحب الذي حُرم منه بسبب عبوديته والواقع الاجتماعي أو الوعي الطبقي، وإحساس الشاعربلونه، بوصفه المسألة الأكثر حساسية في تفكيره، وردود فعله النفسية، وهو ما أسماه محمد ناجح حسن "بدور التجربة الصعبة في عملية الإبداع الشعري"[٤].

وكذلك خفاف الذي كان أكثر شعره في الجاهلية حتى إذا ما جاء الإسلام لم يُروَ عنه إلا بضعة أبيات[٥]، بالرغم من أنه عاش حتى أدرك خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وربما عاد السبب في قلة شعره في الإسلام إلى رسالة الإسلام التي دعت إلى إلغاء الفروق الفردية فلا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، فقد كان أغلب شعره الذي نظمه في الجاهلية منافحٌ عن لونه[٦] وليس السبب فقدان كثير من شعره[٧]، لأنه لو كان هذا هو السبب لكان الأولى بالفقدان شعره الذي نظمه في الجاهلية لبُعد المسافة بينه وبين عصر التدوين.

واتخذ الأغربة للخلاص من معضلتهم سُبُلًا منها كان من أهمها، التسامي على واقعهم المُزري، مُسلِّطين عليه أسواط لسانهم الذرب الحاد لإثبات تفوقهم أولًا ثم الانتقاص من شأن الآخر وإضفاء مِسحة من الجمال والتميز علي ثوبهم الأسود القشيب، فقارنوا بين المظهر والجوهر، يقول عنترة:

تُعيِّرني العدا بسواد جلدي وبيض خصائلي تمحو السوادا

وَرَدتُ الحربَ والأبطال حولي تهُزُّ أكُفُّها السُّمر الصِعادا[٨]

---

(١) تاريخ الأدب العربي، الأدب الجاهلي قضاياه_أغراضه_أعلامه_فنونه، د. غازي طليمات، عرفان الأشقر، مكتبة دار الإرشاد، حمص، ط١، ١٩٩٢م، ص ٤١٣.

(٥) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ. د. محمد علي سلامة، ص١٧٤.

(٦) انظر: فارس بني عبس، حسن عبد الله القرشي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٧م، ص٧٥، يفتاح الجلعادي وعنترة بن شداد بين الاضطهاد والمعاناة، د. محمد أحمد عبد الحميد الفقي، مكتبة بستان المعرفة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، فرع دمنهور، ٢٠١٠م، ص٥٢، تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ج١، راجعها د. شوقي ضيف، دار الهلال، ص١١١.

(٤) الإبداع والتلقي في الشعر الجاهلي, محمد ناجح حسن, رسالة ماجستير, إشراف د. إحسان الديك, جامعة النجاح الوطنية, نابلس, فلسطين، ٢٠٠٤م, ص١٨٠.

(٨) شعر خفاف بن نُدبة السُّلمي، جمعه وحققه د. نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧م ، ص١٣.

(٦)خفاف بن نُدبة حياته وشعره، د. جمال محمود سيد أحمد جنيدي، ص٣.

(٧) السابق، ص٦٥.

(٨) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص٥٧.

إنهم يصرخون بالأسود في وجه الأبيض، فبالرغم من علم عنترة التام بكراهية هذا اللون، وخاصة إذا كان في البشرة، لأنه لون آلهة الشر السلبية، ولون الليل والظلام، ولكنه مع ذلك حاول الدفاع عنه، لائذًا بفعاله الحميدة، فدافع عن لونه أكثر من عشرين مرة في ديوانه، معتذرًا عنه، ولكن بطريقته الخاصة، وهي تسليط الضوء على الجانب الأبيض من شخصيته، وإعطائه سمة القداسة والتسامي بأفعاله الحميدة، إنه لا يحاول محو السواد الذي يكسوه وإنما يحاول إزالة المفاهيم السلبية عنه.

ثم يُظهر سلاحًا آخر للنسق المُستعلي، وهو سلاح اللامبالاة قائلًا:

أنا العبد الذي خبِّرتِ عنه ... رعيتُ جمال قومي من فطامي

أروح من الصباح إلي مغيبٍ ... وأرقد بين أطناب الخيام [1].

إنه لا يكترث لما يولونه من الأعمال الصغيرة التي لا ترقى لمنزلته بين أقرانه، من رعيٍ للجمال طوال النهار، ثم نوم في الخلاء بالليل، فهو يرى نفسه شيئًا من ممتلكات سيده:

المالُ ما لكم والعبد عبدكم ... فهل عذابك عني اليوم مصروف[2].

أما عن خفاف بن ندبة، ثاني من أُطلق عليهم اسم أغربة العرب رغم اعتراف والده ببنوته منذ صغره، فلم يسلم من ويلات وجرائر هذا اللون، وكان يجد غضاضة في الحديث عنه، ومع ذلك كانت هذه العقدة تُلِحُّ عليه أحيانًا، وتركت في نفسه أثرًا بينًا، يقول خفاف:

كلانا يُسوِّده قومه ... على ذلك النسب المُظلم [3].

فهو يتذكر نسبه لأمه، النسب الأسود الذي يرى فيه معيبة ونقصًا، يتذكره حتى بعدما ساد قومه، وأصبح قرنًا لابن عمه العباس ابن البيضاء الذي عاب عليه سواده، وبفضل قوته وشجاعته وفروسيته، حلَّق باسمه فوق شبهات نسبه، ولكن قبيلته كانت دائمًا ما تتذكر سواده ونسبه لأمه، وعبوديته المقترنة بسواده مع أنه حُر.

أما عن السُليك، وهو ثالث الثلاثة الأغربة، فقد عرّض بلونه في حديثه عن خالاته اللاتي شيب رأسه رؤيتهن بين الرجال، لكونهن إماء، فهن حقٌ مباحٌ للجميع:

أشابَ الرأسَ أنّي كلَّ يومٍ ... أري لي خالةً وَسْطَ الرجالِ

يشُق عليّ أن يلقين ضيمًا ... ويعجزُ عن تخلُّصهن مالي[4].

والخالة هنا، كل أمةٍ سوداء، لأن أمَّه كانت سوداء.

---

(1) السابق، ص٢٠٤.

(2) السابق، ص ١٢٥.

(3) شعر خفاف بن نُدبة، د. نوري حمودي القيسي، ص ١٠٨.

(4) ديوان الشنفري ويليه دايونا السُليك بن السُلكة وعمرو بن براق، طلال حرب، ص٩٧.

وكان من أثر عقدة اللون أن ظهرت المرأة التي تحمل رمز النسق الجمعي أو الآخر ـ القبيلة ـ في أشعارهم، كما عَلت نبرة الفخر في أشعارهم ردًا على خصومهم وانتصارًا من أعدائهم وعُلوًا بذواتهم وصنعًا لنسق استعلائي فردي، يتغالى على النسق الاستعلائي الجمعي، ويُبدد مساعيه وأفكاره ومعتقداته، فَعلت الأنا الفردية لديهم على أنا الجماعة، وجعلوا من يعيبونهم من أشد أعداءهم، لذلك فإنهم يُلحون على ذِكر أسمائهم لإعطائها المكانة التي تستحقها يقول خُفاف:

أقول له والرمح يأطرُ متنهُ تأمَّل خُفافًا إنني أنا ذلكا[١]

ويقول عنترة:

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئرٍ في لَبان الأدهم

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدمِ[٢]

فهؤلاء الشعراء يجدون في عالمهم الشعري وفي حروبهم مخرجًا ومتنفسًا لنوازع داخلية باطنة، فأدَّى ذلك إلى شعورهم بالاغتراب، أو ما تُسميه الباحثة حياة بوعافية " الاغتراب العنصري أو العرقي"[٣] لذلك فهم غرباء عن الزمان والمكان، يقول عنترة:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم[٤]

كما أدَّت عقدة اللون لديهم إلى لجوئهم إلى عنصر الواقعية في أشعارهم، فأدبهم يتميز "بصفة الواقعية، التي تُعدُّ من أهم أركان الأدب الذي يُعبِّر عن مذهب التكافل الاجتماعي، فهم لا يهربون من واقعهم أبدًا، ولا ينطلقون بأشعارهم في سماوات الخيال والوهم، ولكنهم يعترفون بواقعهم المرير بكل ما فيه"[٥].

كما كانت عقدة اللون وراء تغيرات جوهرية في المجتمع العربي، فكانت وراء "الاستجابة السريعة للإسلام، ووراء المطالبة المبكرة بالعدل الاجتماعي، ووراء تدعيم جانب من جوانب الشعوبية، ووراء الغضب المبكر في الشعر العربي، ووراء التحول من ضمير الجمع القبلي إلي ضمير المفرد الإنساني، ووراء اقتراب الشاعر من ذاته، بعد أن كانت القبيلة ذاته، ووراء التوتر في الإيقاعات المتألقة للقصيدة، ووراء اختيار الأوزان القصيرة، ونظام المقطوعة،

---

(١) شعر خفاف بن ندبة السُّلمي، د. نوري حمودي القيسي، ص٦٤.

(٢) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص ١٨٣، ١٨٤.

(٣) الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري، دراسة موضوعية فنية، حياة بو عافية، جامعة محمد بوضياف بالمسلية، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف د. مصطفي البشير قط، ٢٠٠٩م، ص٢٢.

(٤) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص١٧٤.

(٥) الشعر العربي في العصر الجاهلي، د. محمد مصطفي هدارة، الدار الأندلسية، العصافرة، الاسكندرية، ١٩٨٧م، ص١٧٤.

والجمل الحسية المتنوعة من لحم الحياة الغائر، بالإضافة إلي أنها كانت وراء إسقاط عدد من تقاليد القصيدة العربية المتوارثة، وبصفةٍ عامة، فقد كانوا قريبين من روح الشعب، ومن حركة العمل التي كانت تصهر الطبقات الفقيرة، ومن هنا أوجدوا ثقلًا ماديًا في القصيدة العربية ... ولهذا نزعُم أنهم من رواد الواقعية العربية، فقد كشفوا عن الشاعرية الكامنة في الأشياء البسيطة" [1]، كما أنها كانت وراء نقل الشعر العربي من "النهج الذاتي الغنائي، إلي النهج الموضوعي"[2].

ومما سبق يتبين أن الشعراء الأغربة شغلتهم مشكلة ألوانهم فأكثروا من ذكرها تصريحًا وتلميحًا، فولّدت هذه المسألة لدى بعضهم ما يُعرف بعقدة النقص مثل السليك، ولآخرين ما يعرف بعقدة التفوق مثل عنترة، فاختلف تأثيرها عليهم من شاعر لآخر، ولكنها في النهاية تبقى ذات أثرٍ فعال كما ظهر ذلك من خلال استقصاء أشعارهم.

الفصل الثاني: دلالات الألوان في شعر الأغربة:-

كثيرًا ما حاول الشعراء الأغربة الظهور بمظهر المنسجمين مع ذواتهم، المتوافقين معها، رافضين الإذعان للأمر الواقع، متعلقين بشعاع أملٍ خافتٍ لطالما راود مُخيلتهم وداعبها ألا وهو الحرية، إذ خُلقوا مُكبّلين بقيود المجتمع تائهين بين الوجود والعدم، ودائمًا ما كان الأغربة بارعين في توليد الصور التي تضج بالألوان، مانحون إيَّاها دلالات خاصة بهم، تتفق أحيانًا مع الدلالات التي أضفاها عليها المجتمع، وتختلف أخرى.

وهذا مما يحاول هذا الجزء من البحث استنباطه، فالشاعر الجاهلي عمومًا "كَلِفٌ بالألوان، وأكثر الألوان ورودًا هو اللون الأبيض ثم الأسود، فالأخضر فالأحمر"[3]، ولكن هل هذا المقياس ينطبق على الشعراء الأغربة؟ هذا أيضًا مما سيتضح في ثنايا البحث من خلال دراسة دلالات الألوان عند الشعراء الأغربة.

أولًا:- دلالات اللون الأسود في شعر أغربة العرب:

السواد ليس لونًا، بل هو فقدانٌ لكل الألوان إنه ليس مجرد لون، بل هو قفص يحبس صاحبه بداخله، فالعرب كانوا "يبغضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض، فقد وصفوا كل شيء ممدوح عندهم، ماديًا كان أو معنويًا بالبياض"[4]، فبات السود أو كما أسموهم أغربة العرب، يندبون حظوظهم التعيسة، فحمَّل الأغربة هذا اللون دلالات مناقضة لما حمله اللون الأبيض تركَّز جلها "حول دائرة

---

(1) الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، د. عبده بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ص٧، ٨.

(2) أغربة العرب وتراكمات الأمومة في الشعر الجاهلي، د. هيام حماد، ص٦٧.

(3) اللون وأثره النفسي في شعر عنترة العبسي، د. صباح علي، ص ٣٥.

(4) الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، د. عبده بدوي، ص٢١.

الخراب والموت والظلام والفناء... "[١]، والفقر والذل والعبودية فالأسود في البشرة دليل عبودية، يقول خفاف بن ندبة:

كلانا يسوده قومه على ذلك النسب المظلم[٢]

واستخدم الأعربة هذا اللون، كناية عن الشدة في الحرب، وصعوبة الموقف، يقول عنترة:

يا عبل كم من جحفل فرَّقته والجو أسود والجبال تميدُ[٣]

فسواد الجو نتيجة للغبار الذي يثيره في أرض المعركة، أو نتيجة للغبار الذي تثيره الجن في أرض المعركة، لأن الغُبار لا يثور إلا لمقتل زعيم عندهم، وعنترة قد قتل الفرسان وقادة الجيوش، وفرَّق جحافلهم، والغبار كان دلالة على شدة المعركة.

وهو دليل قوة في الحيوان عمومًا، يقول عنترة:

صعلٌ يعودُ بذي العشيرة بيضه كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم [٤]

والأسود في الظليم يدل على قوته، لأنه من مطايا الجن والأصلم المقطوع الأذنين، فهذا الظليم الأسود الذي يشبه العبيد يعيش في مكان موحش، لا يجرؤ أحد على الذهاب إليه، وقد وصل الشاعر به ناقته مما يدل على قوتها وشجاعتها.

وقد تشاءم أغربة العرب من الأسود مع الغراب، مثلهم مثل العامة لاعتقادهم أن سواده هو سبب تشتيت شملهم، ولِمَ لا ؟ وهم أكثر من عانى منه، يقول عنترة:

يا عبلُ كم تنعقُ غربان الفلا قد ملّ قلبي في الدُّجى سماعها [٥]

وهو لون يدل على الحزن والحداد لذا جعل عنترة الليل أسود عابسًا في رثائه لعمه مالك:

لقد كان يومًا أسود الليل عابسًا يخاف بلاه طارق الحدثان[٦]

فأخذ الأسود هنا دلالة الموت والحزن والألم والشر والعدوان "والسواد رمزٌ للشر والظلم والعدوان" [٧] وخاصة في سياق وصفه للمصائب والمُلمَّات.

أما خفاف بن ندبة، فإنه "يلعب الأسود في شعره دورًا كبيرًا"[١] وخاصة في بداية قصائده، وظهور الأسود في أول القصيدة يدل على "عدم رضا الشخص عما يحيط به، وشعوره بأنه لا شيء يجب أن يظل كما هو، فهو في حالة ثورة"[٢].

---

(١)الأساس الواقعي لجماليات اللون في شعر الأغربة الجاهليين, خالد زغريت, مجلة حوليات التراث, ع٣, ٢٠٠٥م, من ص٧٥ :٩٠، ص٧٨، ٧٩.

(٢) شعر خفاف بن ندبة السُّلمي، د. نوري حمودي القيسي، ص١٠٨.

(٣) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص٦٧.

(٤) السابق، ص ١٧٨.

(٥) السابق، ص١١٤.

(٦) السابق، ص ٢١٦.

(٣) ثور الوحش بين النابغة وذي الرمة، د. زكريا عبد المجيد النوتي، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٣٦.

كما برز اللون الأسود في شعر الأغربة من خلال صورة الأفعى السوداء التي حاولوا التوحد معها، للتعبير عن قوتهم وشراستهم إذ "الحية رمز للآلهة القمرية"[٣]، أي عشتار البابلية، لتجدد جلدها يتجدد دورة القمر وكانت متربعة على مجالات الحياة من حب وجنس وحرب، فهي ترمز إلى الحياة والخصب والولادة والضوء والزمن وإعادة الميلاد[٤] لذلك يرى عنترة في نفسه حيةً سوداء تنفث السُمَّ في قلوب الأعداء:

أترجو حياةً يا ابن بشر بن مُسهرٍ ... وقد علقت رجلاك في ناب أسودا
رَقودُ ضُحيَّاتٍ كأنَّ لسانه ... إذا سمع الأجراس مكحالُ أرمدا
يُفيتُ النفوسَ قبل أن يقع الرُقى ... وإن أبرق الحاوي عليه وأرعدا[٥]

فهو ينام في الضُحى، ليس ترفيهًا، وإنما لأنه يستيقظ في الليل، وذاك من شأن الحيات، فلسانها كمكحال الأرمد، أي أسودٌ دقيق "ومكحال الأرمد أشدّ سوادًا من غيره لكثرة ما يُستعمل"[٦]

وهو لونهم الأول وهذا يدل على سخطهم على الواقع المحيط، "فوقوع اللون الأسود في بداية القائمة، يدل على النزعة التشاؤمية، والنظرة السلبية للحياة، على اعتبار الأسود سلبًا للون نفسه، إنه يمثل الاستسلام النهائي، والتخلي عن كل شيء، كما أن وقوع هذا اللون في الموقع الأول، يدل على عدم رضا الشخص عما يحيط به، وشعوره بأنه لا شيء يجب أن يظل كما هو، إنه ثورة ضد القدر أو ضد حظه على الأقل، ولذا يتصرف صاحبه بدون حكمة، ويدل هذا اللون كذلك على غموض صاحبه وميله للتكتم"[٧].

ثانيًا:- دلالات اللون الأبيض في شعر أغربة العرب:-

مَثّل اللون الأبيض عند العرب قيم الجميل والجليل، وتجلّى في أشعارهم حاملًا معه دلالات الشرف والعفة والنقاء والطهارة في معظم مواطن وروده،

---

(١) الشعراء السود وخصائصهم في الشعر الجاهلي، د. عبده بدوي، ص ٥٠.
(٢) مستويات التشكيل اللوني في الشعر الجاهلي دراسة فنية، سمية العلمي، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أ.د. محمد بن حسين حماد، جامعة طيبة، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٩م، ص ٢١.
(٣) الحية في الشعر الجاهلي، محمود صبري، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف د. إحسان الديك، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٣م، ص ١٣.
(٤) السابق، ص١٣: ١٩.
(٥) كتاب الحيوان، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت. عبدالسلام محمد هارون، ج٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م، ص٣٠٨.
(٦) السابق، نفس الصفحة.
(٧) اللغه واللون، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م،ص ٢٣٧.

وظهر اللون الأبيض عند الشعراء الأغربة في بعض الصور منها صورة البرق والقمر، وفي وصف الخيل، وبعض أدوات الحرب، وفي وصف الرجال والنساء وكذا الشيب، لذا تعددت دلالاته عند هذه الفئة من الشعراء، فالأبيض لونٌ يدُلُّ على الطهر والنقاء والجمال، لذا استعمله عنترة لوصف الأعمال الحسنة، والأخلاق الفاضلة، وأضفوا هذا اللون على أفعالهم وأخلاقهم، لإدراكهم أهمية هذا اللون في حياتهم، فلا يشعر بالشيء إلا فاقده، يقول عنترة:

تُعيرُني العدِا بسواد جلدي وبيض خصائلي تمحو السوادا[١]

كما استخدمه خفاف في وصف الوجوه بالبياض، جاعلًا بياضها رمزًا لحريتهم:

في فتيةٍ بيض الوجوه كأنهم أُسْدٌ على لحمٍ ببيشة طُلَّع[٢].

ومن دلالات الأبيض عند الشعراء الأغربة على القوة تسمية السيف بالأبيض، وقد سمَّى عنترة السيف بالأبيض في ديوانه أكثر من عشرين مرة، لوصف رقتها ولمعانها، فكلَّما كان السيف رقيقًا، كان كالشعاع الذي يقبض أرواح أعدائه بسهولة، يقول عنترة:

وبيض سيوف في ظلال عجاجةٍ كقطر غوادٍ في سواد غمامِ[٣]

وهو يربط السيف هنا بالماء حين شبهه بقطرات المطر المتساقط من السحابة السوداء، التي يقطر منها الماء لسرعة حركتها وتتابعها، ولمعان الماء وبريقه وشفافيته، التي تشبه لمعان السيف، وربَّما كان إكثار الشعراء الأغربة من وصف أسلحتهم بالبياض رغبةً منهم في إظهار ما يعتمل في نفوسهم من رغبات ذاتية، للتحرُّر من قيود ألوانهم.

ومن الدلالات التي أضفاها الأغربة على اللون الأبيض، دلالة الخير والبشر والنفاسة فيصف قصائده الشعرية ومعانيه الجديدة الغالية، بالجواهر والدرر:

وخذي كلامًا صغته من عسجد ومعانيًا رصَّعتُها بالجوهرِ[٤]

فهذه القصائد الغالية هي التي تُخرج الضوء الأبيض من السجون السوداء، ليستمع إلى قصائد عنترة، فيتأثر بها، ويدافع عمَّن قيلت هذه القصائد فيه.

ومن الأشياء التي ارتبط ذكرها باللون الأبيض، رؤية البرق، واستُخدم اللون الأبيض عند الشعراء الأغربة في وصف البرق بدلالة سلبية ألا وهي دلالة الموت والقتل السريع دون سابق إنذار، يقول عنترة:

يا بني عامرَ ستَلقونَ برقًا من حسامي يجري الدماء سجاما[٥]

---

(١) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص٥٧.
(٢) شعر خفاف بن ندبة السُّلمي، د. نوري حمودي القيسي، ص٤٢.
(٣) السابق، ص١٩٩.
(٤) السابق، ص٩٤.
(٥) السابق، ص٢١٠.

فالبرق هنا بمعنى لمعان السيف الجالب للموت، مع أن البرق الحقيقي كان يترقَّبه الشعراء، ليحمل الماء إلى الأرض المنهكة التعيسة، فهذه المفارقة في صورة البرق أكثر حضورًا عند هذه الفئة من الشعراء.

ومن خلال ما سبق، يتضح أن الأغربة بالرغم من معاناتهم، إلا أنهم لم يكرهوا اللون الأبيض، ولكنهم "ركَّزوا على الكلمة المقابلة لأسود وهي أبيض، وهي كلمة غير مكروهة عندهم"[1].

دلالات اجتماع الأبيض والأسود عند أغربة العرب:

اجتهد الشعراء الأغربة في جمع شمل الأبيض والأسود معًا، ليحققوا لذواتهم التوازن النفسي والعاطفي، والقوة التي يمكنهم من خلالها إخفاء أثر لونهم الأسود عليهم، فالشاعر "يلجأ إلي التضاد، لكي يضفي على النص جوًا نفسيًا وانفعاليًا، إذ إنه يعطينا ثنائيات ضدية، تعبر عما يجول في داخله"[2].

يتحدث عنترة عن جواده الأدهم، وقد علته غرة بيضاء بين عينيه قائلًا:

وسنانًا إذا تعسفت في الليل ... هداني وردني عن ضلالي
وجوادًا ما سار إلا سرى البرق ... وراه من اقتداح النعال
أدهم يصدع الدجى بسواد ... بين عينيه غرة كالهلال[3]

فغرة هذا الحصان الأدهم، كالهلال الذي يعلو السماء في ظلمة الليل البهيم، وفي هذا دلالة على قوة جواده الجسدية، فالبرق يتبع هذا الجواد الأسود، أينما سار من فرط سرعته، واحتكاك نعاله الحديدية بالأرض فيخلق هذا الجري السريع في مخيلة الشاعر البرقَ الذي يصدع دُجي الليل، فاجتماع الأبيض (البرق – الهلال) مع الأسود (لون الخيل – الليل) أعطى لصورة الخيل قوة تستطيع هزم الليل.

ثالثًا: دلالات اللون الأحمر عند أغربة العرب:

والأحمر عند الشعراء الأغربة يقع في المركز الثالث بعد الأسود ثم الأبيض وهذا اللون يحمل معني التشاؤم عند العرب غالبًا، لارتباطة بالدم والحزن والعداوة، ولكنه غالبًا لونٌ مستحب عند هذه الفئة من الشعراء، لرغبتهم الجامحة في الانتقام من المجتمع التمييزى العنصري، الذي قتل الدماء الحمراء في عروقهم، وأبدلهم عوضًا عنها، أخرى سوداء ناقمة على كل أبيض، فكانوا غالبًا ما ينتشون لرؤية هذا اللون، ويشعرون معه بالفرح والسعادة، لذلك شبهوا الدماء بالخضاب والعقيق الأحمر والأرجوان، يقول عنترة:

وكم من فارس خلَّيتُ ملقىً ... خضيب الراحتين بلا خضاب
يحرك رجله رعبًا وفيه ... سنان الرمح يلمع كالشهاب[1]

---

(1) الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، د. عبده بدوى، ص٣٤٨.
(2) الصورة اللونية في شعر ابن سهل الأندلسي، د. أناهيد عبد الأمير الركابي، مجلة كلية الآداب، العدد ٩٧، من ص ٢٩٣: ٣١٧، ص ٣٠٤.
(3) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص ١٦٥.

فهو يرى في الدماء مظهرًا من مظاهر الفرح، إنه الخضاب المتداول في الأعراس ويرون اللون الأحمر في نار الحرب، وهي نار حقيقية، يوقدها زعيم القبيلة وفرسانها إذا عقدوا النية على الحرب[٢]، وهي نار معنوية أيضًا يكتوى بها الأموات قبل الأحياء، يقول خفاف:

ألقحت حربًا لها شدّة زمانًا تسعرها باللظى[٣]

دلالات اللون الأصفر عند أغربة العرب:

إذا كانت دلالة اللون الأحمر لم تختلف كثيرًا عند الشعراء الأغربة، فدلالة اللون الأصفر كانت على النقيض تمامًا، إذ اختلفت دلالته لديهم، لرؤيتهم الحسية الواقعية لهذا اللون، وبُعده عن معضلتهم الشخصية، ولكنه مع ذلك كان لونًا مقدسًا، لارتباطه بالإلهة الشمس، وضوئها الأصفر، باعث النصر، وكانت الغارات تبدأ بظهورها، ويؤكد عنترة على هذا المعنى قائلًا:

يا عبلُ كم من غمرةٍ باشرتها بمثقَّف صُلب القوائم أسمر
فأتيتها والشمس في كبد السما والقوم بين مُقدم ومُؤخرِ[٤]

كما وصف به زجاجة الخمر لدلالة النقاء والغنى والثراء:

ولقد شربتُ من المُدامة بعدما ركدَ الهواجر بالمشوف المُعلم
بزجاجةٍ صفراء ذات أسرةٍ قُرنت بأزهر في الشمال مفدم[٥]

ويرى السُليك في اللون الأصفر،الذي يدل على الخوف والموت والذبول، ما يسعده ويسره:

كأن مفالق الهامات منهم صرايات تهادتها الجواري[٦]

فرؤوسهم المشقوقة إلى نصفين، كأنها الحنظلة الصفراء التي تتهادى بها الجواري، وهذا يحمل دلالة الفرح والعيد والاحتفال من الشاعر بهذا اللون الأصفر، والموت والحزن للمقتول وأهله.

دلالات اللون الأخضر عند أغربة العرب:

يتسم هذا اللون بخواصه المهدئة، لأنه لون الروض والجنات والحدائق الخضراء والخمائل، والتي يتعارض ذكرها مع حياة الأغربة دائمة التوتر

---

(١) السابق، ص١٧.
(٢) انظر: صورة النار في الشعر الجاهلي(تفسيرًا فنيًا)، د.نجيب عثمان أيوب، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م، ص ٩٩، ١١٠، ١١١.
(٣) شعر خفاف بن ندبة السَّلمي، د. نوري حمودي القيسي، ص٦٨.
(٤) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص٩٣.
(٥) السابق، ص ١٧٩.
(٦) ديوان الشنفرى ويليه ديوانا السُليك بن السُلكة وعمرو بن براق، طلال حرب، ص٩٢.

والحروب والصراعات، فهو دليلٌ على الراحة، وخلو البال من المنغصات، وقد خصوا أطلال الحبيبة بالوشم الأخضر، يقول عنترة:

ألا يا دار عبلة بالطويّ كرجع الوشم في كفّ الهديّ[1]

فالوشم لا يمكن محو أثره، كما لا يمكن محو أثر بقايا المحبوبة، من ديار وأطلال، فهو بمثابة تعويذة تمنح الطلل الخلود، لأن اللون الأخضر لون الخلود والحياة الأبدية.

واللون الأخضر من الألوان المبهجة، قليلة الورود في أشعار الشعراء الأغربة، لأنه لون مهدئ، واستخدم الشعراء الأغربة هذا اللون بدلالة السلام والأمل.

دلالات اللون الأزرق عند أغربة العرب:

تعامل الأغربة مع اللون الأزرق بنفس الطريقة التي تعاملوا بها مع الأخضر، من حيث قلة استخدامهم له، لأنهم خافوا من ذكره، لأنه مع إحاطته بهم في لون البحار والسماء، ولكنهم اعتقدوا بتحكم قوى خفية في هذا اللون كالغيلان ذوات العيون الزرقاء، يقول عنترة:

والغول بين يدي يخفي تارة ويعود يظهر مثل ضوء المشعل

بنواظرٍ زرقٍ ووجهٍ أسودٍ وأظافر يشبهن حدَّ المِنجل[2]

فصورتهُ المخيفة تأتي من جرَّاء لونه الأسود، المقترن بالعيون الزرق، وهي صورة خيالية عبر فيها اللون الأزرق عن الخوف والرعب الذي سيطر على الموقف الشعري.

الفصل الثالث: اللون وتصوير المرأة عند الأغربة:-

للمرأة شأنٌ رفيع في وجدان الرجل، فقد خلق الله عزَّ وجل الكون من ذكرٍ وأنثى "يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إنَّ الله عليمٌ خبير"[3]، والشعراء الأغربة كان جوهر عشقهم الألم والحرمان، فهل أدى ذلك إلى ظهور صورة مختلفة للمرأة عن الصورة المختزنة في لباب كل عربي يعيش في ذلك العصر؟هذا مما يحاول هذا الجزء من البحث استكشافه.

أولًا:- المرأة الحبيبة عند الشعراء الأغربة:

- لون البشرة:

---

(1) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة ، ص٢٣٣.

(2) السابق، ص ١٦٨، ١٦٩.

(3) الحجرات، آية ١٣.

بالرغم من سواد الشعراء الأغربة، إلا أنهم هاموا عشقًا وولهًا بالنساء البيض، لأنَّ اللون الأبيض كان "غايتهم الضائعة التي أفقدهم غيابها حصانة وجودهم"[١]، وبياض وجه المرأة يشمل معاني الحرية والعفة، وجعله عنترة في لون بشرتها دليلًا على الشرف والعفة في معرض ذكر أخلاق المرأة، يقول عنترة:

من البيض لا تلقاك إلا مصونة ... وتمشي كغصن البان بين الولائدِ
كأنّ الثريا حين لاحت عشيةً ... على نحرها منظومةً بالقلائدِ
منعَّمة الأطراف خودٌ كأنَّها ... هلالٌ على غصنٍ من البانِ مائدِ
حوى كلَّ غصنٍ في الكواعب شخصها ... فليس بها إلا عيوب الحواسدِ[٢]

فبياض هذه المرأة أتى من كونها جوهرة مكنونة، وقرنه أيضًا باللون الأخضر دليل الرطوبة والخصب وصغر السن، وقد دَأَبَ العرب على الاستعارة من عالم الأشجار والنخيل لارتباط المرأة بعالم النبات وخاصة النخيل، من خلال سِر الخصوبة في كلٍ منهما.

فتردُّد وصفها بالقمر لابد أن تكون له دلالة غير الدلالة المادية أيضًا وهي بياض الوجه، لأنّ العرب اعتادوا وصف البيض بالشموس وليس بالقمر، ويبدو أن الشاعر أراد أن يُثبت لها صفات تفوق صفات سائر جنسها، من الكمال المختص بالذكور والجمال المختص بالنساء دون الذكور، فهي امرأةٌ من نوعٍ ومن جنس خاص ولكنهم لم يكثروا من >كر النساء البيض لأن الأغربة حين يمدون أعينهم وقلوبهم خارج دائرة الأنثى السوداء يصابون بالإحباط، بل بالقتل أحيانًا[٣].

- لون الشَّعر:

من تمام انسجام وتناسق جمال المرأة، أن يكون شعرها أسودًا طويلًا كثيفًا، ليتناسب مع بشرتها البيضاء، وشفتها اللَّعساء، وعيناها الكحلاوين، وأسنانها البيضاء كالأقحوان، يقول عنترة:

خطف الظلام كسارقٍ من شعرها ... فكأنَّما قُرن الدُجى بدياجي[٤]

وتوحي كلماتٌ مثل (الظلام، الدجى، دياجي) بالكثافة اللونية لسواد الشعر، ولكن عنترة يعدل عن حب العرب للشعر الأملس، ليجعل شعر حبيبته جَعِدًا:

يبيتُ فتات المسك تحت لثامها ... فيزداد من أنفاسها أرجُ الندِّ
ويطلعُ ضوء الصبح تحت جبينها ... فيغشاه ليلٌ من دُجي شعرها الجَعِدِ[٥]

---

(١) الأساس الواقعي لجماليات اللون في شعر الأغربة الجاهليين، خالد زغريت، ص٧٧.
(٢) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص٧٧، ٧٨.
(٣) صورة المرأة في شعر صعاليك العصر الجاهلي، عبد العزيز بزيان، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أ.د. محمد بن زاوي، ٢٠١٢م، ص٨٩.
(٤) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص ٤٠.
(٥) السابق، ص ٧٦.

فبياض البشرة، يُظهره سواد الشعر، والضد يبرز حسنه الضد، وجمالية الأبيض تعكسها كثافة الأسود[1].

- لون العيون:

أحبّ الأغربة، مثلهم مثل العرب، العين الحوراء الدعجاء، التي يجتمع فيها شدة البياض إلى شدة السواد، يقول عنترة:

تُديرها من بناتِ العُربِ جاريةٌ رشيقةُ القدِّ في أجفانها حَوَرُ
إن عِشتُ فهي التي ما عشتُ مالكتي وإن أمُت فالليالي شأنُها العبرُ[2]

وكانت النساء تكتحل بالإثمد، لإظهار جمال أعينهن:

موتُ الفتى في عزّهِ خيرٌ له من أن يبيتَ أسيرَ طرفٍ أكحل[3]

فالعيون الكحلاء تسجنُ الفتيان في أقفاصها المُحكمة.

- فمها وريقها:

شبّه الشعراء الأغربة ريق المرأة بالسحابة، والخمر، والمطر والمسك، وأسنانها بالأقحوان والبَرَدْ، فريق المرأة في القصيدة الجاهلية اقترن "بدلالات الخصب والنماء"[4]، فيصف خفاف فاها الأغر الأبيض، ورضابها:

بغُرِّ الثنايا خيف الظلم نبتهُ وسنَّة رئمٍ بالجنينة مونق[5]

فبياض الأسنان وخاصة إذا كانت مفلجة يتخللها الماء والهواء لينقي رائحتها، من الأشياء المستحبة في المرأة .

وصاحب عبلة الذي أضناه الحب وشفّ جسده، ومع ذلك لم يجرؤ على فعل ما يشينها، فهي دائمًا الصفية المقدمة لديه، يصف بياض فمها الذي يشبه لمعان السيوف في أرض المعركة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ مني وبيض الهند تقطرُ من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم [6]

فحين تراءت له السيوف البيضاء اللامعة وكانت تشرب من دمه لتصل إلى حد النُمالة، فتتمايل على جسد عنترة لترتوي من دمائه أكثر فأكثر، وهو مع ذلك يتلذذ بهذا الموت، الذي يأتيه من شبيه عبلة، إنه السيف الذي ذكّره بها، وبحبها الذي يفتك به يومًا بعد يوم، فما يزيده ذلك إلا شغفًا وعشقًا فهو القتيل الهائمُ عشقًا

---

(1) المنهج الأسطوري في قراءة الشعر الجاهلي، د. غيثاء قادرة، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصيلة محكمة، العدد السابع، خريف ١٣٩٠هـ، ٢٠١١، ص ٦٩.

(2) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص٨٥.

(3) السابق، ص١٦٢

(4) الشعر الجاهلي مقارنات نصية، قراءة النص الشعري الجاهلي، د. موسي ربابعة، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢م،ص٥٦.

(5) شعر خفاف بن ندبة السُّلمي، د. نوري حمودي القيسي، ص ٢٨.

(6) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص١٨١.

بقتله، فمن أجلها قاتل واستبسل، وخاض الحروب بجسارة، يتذكرها وقت التحام الجيوش، فيرى أرض المعركة، جنات مزخرفة، ويرى فمها في لمعان السيوف فيودّ لو استطاع تقبيله

- قوامها:

وقد شبَّه الأغربة قوام المرأة بالغصن الرطيب، لدونةً وطراوةً، يقول عنترة:

خَطَرَتْ فقلتُ قضيبَ بانٍ حرَّكت أعطافهُ بعد الجنوبِ صَبَاءُ [١]

فقد رآها حين مرَّت عليه تتمايل وتتبختر في مشيتها، كأنها غصنٌ لين نضر الأوراق، حرَّكته ريحٌ جنوبية، إنها رياحُ الصَّبا المعتدلة، وكثُر تشبيههم للشباب في نعومته وحيويته بالغصن.

ثانيًا:- المرأة الأم:

بذل عنترة قصارى جهده ليمنح أمه القوة اللازمة للانتقام من البيض، فجعل لونها أسود، وشعرها أسودًا كثيفًا وشفتيها بيضاء وجعلها إلهة للموت والعدم، تفعل ما لا يفعله البيض، يقول عنترة:

وأنا ابنُ سوداء الجبين كأنها ضبعٌ ترعرع في رسوم المنزل

الساق منها مثل ساق نعامةٍ والشعر منها مثل حبّ الفُلفلِ

والثغر من تحت اللثام كأنه برقٌ تلألأ في الظلامِ المُسدلِ [٢]

فالضبع معروف بأنه إله لمملكة الموتى، وله شهيةٌ في انتهاش أجسادهم وقلوبهم، وجعل ساقيها كساقي النعامة سرعةً، وشعرها كحب الفُلفل مجعد أسود، والشعر المجعد أقوى وأكثف من الأملس، وفمها يتلألأ كالبرق، ليضيئ لها الجو حتى ترى جثث من تنهشهم، وتشفي غليلها من قلوبهم، ثم هويخصص جبينها بالسواد، ليسخر من نظرة القوم وازدرائهم لها، ويهاجم أعرافهم البالية، فهو يسمو بسوداها حتى يجعله في الجبين خاصة، فمنزلتها في عينيه جعلته يرتقي بها فوق مرتبة البشر ليغيظ بها أعين الشانئين، فالضبع عند علماء المنهج الأسطوري، إله للمقابر وهو بسواده يرمز إلى عشتار السوداء القوية المنتقمة، فهو يمنحها نوع معين من الجمال في ناظريه، ولكنه جمالٌ لم تعتد عيون قومه القاصرة استساغته، "إن اختيار عنترة لصفات هذه الأم، هو اختيارٌ للصفات المثال في كل باب، فالساق ساق نعامة، وتحديده للساق خاصة إشارة إلى السرعة المثال، والشعر منها مثل حب الفلفل، فهو مثال في السواد والكزازة، وبياض الثغر ولمعانه كالبرق خاصة، وليس كالبرد الذي ألف الشعراء أن يشبهوا به الثغور، إن كل هذه الصفات، يحكمها

---

(١) السابق، ص٧.

(٢) السابق، ص١٦٣.

إطار واحد هو إطار القوة والتفوق"[1] فهو أبدًا لم ينقم على أمه ولكنه انتقم لها، فهو يضرب بقيمهم عرض الحائط.

وإذا كان البشر يكتسبون صفات الآلهة حين يشربون دمها، فإن هذه الضبع التي هي أم عنترة، تكتسب صفات الموتى الذين تأكل جثثهم، وأم عنترة على هذه الصورة تشبه الإلهة "إفروديت" التي سُميت بإفروديت المقابر، والإلهة "عناة ذات الوجه الأسود، والقوة الأنثوية المدمرة"[2].

ثالثًا:- صورة المرأة المصارمة / العاذلة:-

أعاد بعض علماء المنهج الثقافي صورة المرأة العاذلة والمصارمة إلى كونها الوجه الآخر للقبيلة في تكبُرها على الشاعر الأسود وجبروتها، وساديتها المُطلقة في وجهه، وموقف هذه المرأة، هو نفسه موقف القبيلة المتمردة على الشاعر التي لا يشفع لهم عندها أفعالهم المضيئة النيرة، فهذه المرأة في ضوء القراءة النقدية الثقافية "تقنية أو حيلة نسقية رامزة، وظفها الشاعر الصعلوك لكي يعبر من خلالها عن رؤاه ومواقفه وتصوراته حول الواقع الوجودي المأزوم"[3].

ومن صور المرأة العاذلة، قول السُليك:

ألا عتبت عليَّ فصارمتني ... وأعجبها ذوو اللمم الطوال

فإني يا ابنة الأقوام أربي ... على فعل الوضي من الرجال[4]

فالشعور السوداء الطويلة هنا، كناية عن حياة الترف والرفاهية والبعد عن دواعي الهم والحزن، وما ينغص ويكدر العيش.

رابعًا:- صورةٌ لامرأةٍ غريبة:

يكثُر ورود هذا النوع من النساء في مفتتح قصائد الجاهليين سيرًا على عمود الشعر الذي يبدأ بالغزل، وربما كان السبب في هذا راجعًا إلى أن هذه المرأة في مقدمات قصائده ليست امرأة كسائر النساء، بل"هي ربة الخصوبة والأمومة والحياة، وهي الممثلة للشمس أم الكون، إنها المرأة التي تهب الحياة لمعانقها ولضجيعها، لذا فهو يسجد لها، لأنها الأمُ الشمس"[5].

يقول عنترة:

---

(1) أغربة العرب وتراكمات الأمومة في الشعر الجاهلي، د. هيام حماد، ص٤٤.

(2) صدى عشتار في الشعر الجاهلي, د.إحسان الديك, مجلة جامعة النجاح للأبحاث, مجلد ١٥, ٢٠٠١م، ص ١٥١.

(3) صورة المرأة عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف محمود عليمات، مجلة العلوم الإنسانية، مجلة دورية محكمة، تصدر عن كلية الآداب، جامعة البحرين، العدد ١٤، ٢٠٠٧م، ص ٢٣٦: ٢٧٥، ص٢٤٢.

(4) ديوان الشنفرى ويليه ديوانا السُليك بن السُلكة وعمرو بن براق، طلال حرب، ص٩٧.

(5) صورة النار في الشعر الجاهلي(تفسيرًا فنيًا)، د.نجيب عثمان أيوب، ص٢٢٩.

طربتَ وهاجتك الظباءُ السوانحُ غداة غَدَت منها سنيحٌ وبارحُ
تغالت بي الأشواقُ حتى كأنما بزندين في جوفي من الوجدِ قادِحُ
وقد كنتَ تُخفي حبَّ سمراءَ حقبةً فبُح لانَ منها بالذي أنت بائحُ
لَعمري لقد أعذرتَ لو تعذرينني وخشَّنتَ صدرًا غيبُهُ لكِ ناصحُ[1]

فحين رأى عنترة سربًا من الظباء يروح ويجيئ ذكَّره هذا السرب بحبيبته سمراء، التي ظلّ لفترة طويلة يخفي حبها، فزادت أشواقه حتى كانت كالنار التي تتقد وتتقدح في جوفه من شدة الوجد، فلابدَّ الآن من البوح بهذا السر، أما موقف سمراء منه، فهو يعذرها ولا تعذره، وينصحُها وتُخشّن له القول.

خامسًا: صورة المرأة العاملة:

كانت مهمة الأعمال الشاقة مختصة بالعبيد والإماء، أما الحرائر، فهن نؤومات الضحى، وكان الشعراء الأغربة يُغضبهن هذا الأمر، لأن أمهاتهم وأخواتهم وخالاتهم يُشقُّ عليهن إلى هذا الحد، يقول السُليك:

أشابَ الرأسُ أني كل يومٍ أرى لي خالةً وسطَ الرجالِ
يشقُّ عليَّ أن يلقينَ ضيمًا ويعجز عن تخلصهن مالي[2]

وهو يطلق اسم خالاته على كل أنثى سوداء يستبيح الرجال عرضها وكرامتها وتصبح متداولة في مجتمع الرجال وتُسلب حريتها وكرامتها، فقط من أجل سوادها، لأن هذا النوع من النساء يُذكره بأمه.

فالسُليك كان مفتخرًا بها، محبًا لها، مشفقًا عليها، لا يجد حرجًا في الانتساب إليها[3]، فقد نصّب نفسه مدافعًا عن حقوقها المستلبة.

الخاتمة والنتائج

١_ كان من آثار وعي الشعراء الأغربة بلونهم ظهور بعض العقد النفسية التي توقفت عند بعضهم عند كونها عقدة نقص، وتطورت عند آخرين لتصبح عقدة تفوق، فكانت وراء تفتق مواهبهم الشعرية، وظهور المرأة في أشعارهم كرمز للنسق المستعلي وعلو الأنا الفردية على أنا الجماعة، وكثرة أشعارهم في غرض الفخر، وغلبة عنصر الواقعية في أشعارهم، ونقل الشعرالعربي من النهج الغنائي إلى النهج الموضوعي.

٢_ حارب الشعراء الأغربة النسق المستعلي بعدة أسلحة منها سلاح المواجهة وسلاح اللامبالاة وسلاح الهروب من الواقع أحيانًا أخرى.

---

(١) شرح ديوان عنترة بن شداد، أ.د. محمد علي سلامة، ص٤٢، ٤٣.
(٢) ديوان الشنفرى ويليه ديوانا السُليك بن السُلكة وعمرو بن براق، طلال حرب، ص٩٧.
(٣) المرأة في شعر الصعاليك في الجاهلية والإسلام، أحمد سلمان مهنَّا، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أ.د. نبيل خالد أبو علي، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٧م، ص١٥١.

٣ـ كان اللون الأسود أول وأكثر الألوان ورودًا فكان دليلًا على العبودية في لون البشرة، وعلى القوة في الخيل والفرقة والضياع والاغتراب مع الغراب، وفي وصف الدهر للإشارة إلى مصائبه، ولكن كانت لهم بعض الانفرادات التي أتتهم من جرَّاء تجربتهم مع هذا اللون، فاستحبوا ذكره مع الغبار لدلالة شدة المعركة، وتفاءلوا به في وصف الحيات السود، وفي ذكر الليل، ولكنهم مع ذلك حاولوا الدفاع عنه مرارًا مع علمهم بمساوئه، أما عن الأبيض فقد كان دليلًا على الحرية وأحيانًا على القوة وأخرى على الجمال، وفي لون البرق استدلوا به أحيانًا على الكذب والموت مع أن البرق كان دائمًا منبع تفاؤل واستبشار عند العرب، وجمعوا هذين اللونين للدلالة على القوة والجمال، واستحبوا الدماء الحمراء وكذا النار لرغبتهم الملحة في الانتقام من المجتمع التمييزي العنصري الذي سامهم سوء العذاب، والأصفر كان دليلًا على الذبول والخوف والموت والجبن والقحط، وعلى الشدة والهلاك في وصف الصحراء، أما الأخضر فهو قليل الورود لديهم، مثله مثل الأزرق، فهو لون التفاؤل والطمأنينة التي لم يعهدها الأغربة، وخرجوا به عن دلالاته المستحبة عند العرب إلى دلالات الحزن المستمر والماء الآسن والأزرق كان لون القوى الشريرة المتحكمة في الإنسان.

٤ـ اتفقت نظرة الشعراء الأغربة للمرأة مع نظرة المجتمع الجاهلي أحيانًا واختلفت أخرى، فقد أحبوا المرأة البيضاء ولكن قلَّت أشعارهم فيها لعلمهم أنها ليست مما بإمكانهم الفوز به، وكانوا من أوائل من شبهها بالقمر وبالبدر واختار بعضهم لها الشعر الكثيف المجعَّد والعيون الحوراء، وأضفوا على ريقها رموز جديدة فهو رمز للخصب والحياة كما اختلفت نظرتهم للمرأة الأم عن المرأة الحبيبة فالمرأة الأم شعرها مجعد أسود، وهي نحيفة القوام، أما عن المرأة الظاعنة فكانت هي الوجه الآخر للقبيلة، والمرأة الظاعنة هي نتاج لفعل الزمن في حركته المضادة ضد الشاعر الغرابي، والمرأة في بداية القصائد هي رمز للخصوبة والأمومة والحياة، والمرأة العاملة رمز للأم السوداء.

المصادر والمراجع:-

أولًا: المصادر:-

١. ديوان الشنفرى ويليه ديوانا السُليك بن السُلكة وعمرو بن براق, إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر، بيروت.

٢. شرح ديوان عنترة بن شداد, شرح وتقديم أ.د. محمد علي سلامة, راجعه وضبطه د. عيد فتحي عبداللطيف, الصحوة للنشر والتوزيع, ط١, ٢٠١٠م.

٣. شعر خفاف بن نُدبة السُّلمي، جمعه وحققه د. نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧م.

ثانيًا: المراجع:-

١. القرآن الكريم.
٢. الإبداع والتلقي في الشعر الجاهلي, محمد ناجح حسن, رسالة ماجستير, إشراف د. إحسان الديك, جامعة النجاح الوطنية, نابلس, فلسطين، ٢٠٠٤م.
٣. الأساس الواقعي لجماليات اللون في شعر الأغربة الجاهليين, خالد زغريت, مجلة حوليات التراث, ع٣, ٢٠٠٥م, من ص٧٥ :٩٠.
٤. الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري، دراسة موضوعية فنية، حياة بو عافية، جامعة محمد بوضياف بالمسلية، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف د. مصطفي البشير قط، ٢٠٠٩م.
٥. أغربة العرب وتراكمات الأمومة في الشعر الجاهلي، د. هيام حمّاد، ج١، عنترة بن شداد، دارحراء للنشر والتوزيع الجامعي، المنيا، ٢٠٠٠م.
٦. تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ج١، راجعها د. شوقي ضيف، دار الهلال.
٧. تاريخ الأدب العربي، الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، د. غازي طليمات، عرفان الأشقر، مكتبة دار الإرشاد، حمص، ط١، ١٩٩٢م.
٨. ثور الوحش بين النابغة وذي الرمة، د. زكريا عبد المجيد النوتي، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
٩. جدلية القيم في الشعر الجاهلي، رؤية نقدية معاصرة، د. جمعة بوبعيو، من منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق ، ٢٠١٠م، متاح على http://www.awu-dam.org.
١٠. الحية في الشعر الجاهلي, محمود صبري, رسالة ماجستير غير منشورة, إشراف د. إحسان الديك, جامعة النجاح الوطنية, نابلس, فلسطين, ٢٠٠٣م.
١١. خفاف بن نُدبة حياته وشعره، د. جمال محمود سيد أحمد جنيدي، جامعة الأزهر، فرع البنات بالقاهرة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، د.ت.
١٢. سيرة عنترة بن شداد إلياذة العرب، جميل قاسم، مجلة العربي، ع٥٩٠، مجلة شهرية ثقافية مُصورة تأسست عام ١٩٥٨، تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت، باب تاريخ وأشخاص وتراث، ٢٠٠٨م.
١٣. الشعر الجاهلي مقاربات نصية، قراءة النص الشعري الجاهلي، د. موسي ربابعة، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢م.
١٤. الشعر العربي في العصر الجاهلي، د. محمد مصطفي هدارة، الدار الأندلسية، العصافرة، الاسكندرية، ١٩٨٧م.
١٥. الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي, د.عبده بدوي, الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٨٨م.
١٦. صدى عشتار في الشعر الجاهلي, د.إحسان الديك, مجلة جامعة النجاح للأبحاث, مجلد ١٥, ٢٠٠١م.

١٧. الصورة اللونية في شعر ابن سهل الأندلسي، د. أناهيد عبد الأمير الركابي، مجلة كلية الآداب، العدد ٩٧، من ص ٢٩٣: ٣١٧.
١٨. صورة المرأة عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف محمود عليمات، مجلة العلوم الإنسانية، مجلة دورية محكمة، تصدر عن كلية الآداب، جامعة البحرين، العدد ١٤، ٢٠٠٧م، ص ٢٣٦: ٢٧٥.
١٩. صورة المرأة في شعر صعاليك العصر الجاهلي, عبد العزيز بزيان, رسالة ماجستير غير منشورة, إشراف أ.د. محمد بن زاوي, ٢٠١٢م.
٢٠. صورة النار في الشعر الجاهلي(تفسيرًا فنيًا)، د.نجيب عثمان أيوب، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م.
٢١. الغزل في العصر الجاهلي، د. أحمد الحوفي، رسالة ماجستير غير منشورة، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٥٠م.
٢٢. فارس بني عبس، حسن عبد الله القرشي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٧م
٢٣. كتاب الحيوان، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت. عبدالسلام محمد هارون، ج٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.
٢٤. اللغه واللون, د. أحمد مختارعمر, عالم الكتب للنشر والتوزيع, القاهرة, ط٢، ١٩٩٧م.
٢٥. اللون وأثره النفسي في شعر عنترة العبسي, د. صباح محمد علي, جامعة الأزهر بأسيوط, ٢٠٠٣م.
٢٦. المرأة في شعر الصعاليك في الجاهلية والإسلام، أحمد سلمان مهنّا، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أ.د. نبيل خالد أبو علي، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٧م.
٢٧. مستويات التشكيل اللوني في الشعر الجاهلي, دراسة فنية, سمية العلمي, رسالة ماجستير غير منشورة, إشراف أ.د. محمد بن حسين حماد, جامعة طيبة, المملكة العربية السعودية, ٢٠٠٩م.
٢٨. المنهج الأسطوري في قراءة الشعر الجاهلي، د. غيثاء قادرة، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصيلة محكمة، العدد السابع، خريف ١٣٩٠هـ ٢٠١١.
٢٩. موسوعة الفلوكلور والأساطير العربية، شوقي عبد الحكيم، مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م.
٣٠. يفتاح الجلعادي وعنترة بن شداد بين الاضطهاد والمعاناة، د. محمد أحمد عبد الحميد الفقي، مكتبة بستان المعرفة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، فرع دمنهور، ٢٠١٠م.